الفصل الرابع عشر

كيف ينبغي أن تكون العائلة

لم يكن في النية أن نجعل هذه العبارة عنوانا لهذا الفصل بل، كنا قد جعلنا له عنوانا آخر وسميناه "الآداب العائلية"، ثم عرض لنا حديث مع سيدة إنجليزية جاءت القطر منذ أربع سنوات، وأقامت تشتغل فيه بالتربية والتعليم، متنقلة من عائلة إلى عائلة، ومن بيت إلى بيت بين الأجانب والوطنيين؛ أي بين الغربيين والشرقيين، وبالتالي بين المسلمين، والمسيحيين، والإسرائيليين، فدار الحديث بينا علي التربية العامة، والفرق بين التربية في بلادنا والتربية في بلاد الإفرنج. فكان من جملة ما حزنت لسماعه منها قولها: "أن التربية في الشرق لا تستحق أن تسمى تربية"، وقولها: "أن الآداب العائلية عندكم لا وجود لها علي الإطلاق، بل أن العائلة تكاد عندكم اسمًا لغير مسمى"

ذلك ما سمعناه من فم امرأة غربية دخلت بيوتنا، وجلست في منازلنا، وخالطت عائلاتنا، فاختبرت تربية أولادنا، وأمعنت في النظر إلى كيفية معيشتنا، فحكمت بعد الاختبار والتروي أن "تربيتنا فاسدة، وأن الآداب العائلية معدومة عندنا، وأن العائلة نفسها تكاد اسما لغير مسمى" وما أمره حكم علي قلوب الشرقيين، بل ليت بني الشرق يتخذون مثل هذا الحكم عبرة يعتبرون بها، وقد قيل العاقل من رأى العبرة في غيره فاعتبر، فكيف لا نعتبر ونحن إنما نراها بأنفسنا؟

ومن وجه آخر فقد درسنا نحن بأنفسنا هيئة الاجتماع عندنا أياما عديدة،

وسنين طويلة، فلم يتضح لنا منها ولم يبد لنا من خططها ما يسهل لنا دفع تلك التهمة، ومحو تلك الوصمة، بل رأينا التقصير في تربية الشعب وإهمال السعي في إيجاد العائلة الحقيقية ألصق بنا من ظلنا الذي كلما هربنا منه وجدناه معنا كيفما التفتنا.

ولذلك رأينا بعد إعمال الرؤية أن نجعل لهذا الفصل عنوانا خاصا يدل علي مضمونه، ويشير بجلاء إلى القصد منه، فسميناه كما رأيت في عنوانه "كيف ينبغي أن تكون العائلة؟" وجل ما نرجوه أن لا يجد مواطنونا في هذه التسمية وما سيأتي من الكلام في سياق هذا الفصل ما يجوز لهم، أو ما يجوزون معه لأنفسهم أن يرمونا من أجله بسوء القصد، أو يتهمونا بالتحامل. فإنما القصد الذي نقصده صالح، والنية بحمد الله حسنة، وإنما الأعمال بالنيات، وبحسب نياتكم ترزقون.

ذلك ما رأينا أن نذكره في مفتتح هذا الباب توطئه وتمهيدا لما سيأتي من الأقوال التي ربما ساء بعضهم الاطلاع عليها: إما لعدم فهمهم حقيقة معناها، وإما لحملهم إياها علي محمل الذم والتنديد، غير ناظرين إلى القصد الحقيقي من الإشارة إلى كل ما نشير إليه: وهو الدلالة علي موضع الخلل لالتماس وجوه الإصلاح.

ومعلوم أن الأمة تتألف من مجتمع عائلات، وأن العائلة تتألف من مجتمع أفراد. فالفرد الواحد إذًا مثال العائلة إلا فيما شذ، والعائلة الواحدة مرآة الشعب، وصورة الأمة إلا فيما ندر.

وعلي هذا المبدأ الذي لا يناقض ولا يمارى فيه يكون الذين يحكمون علي أممنا العربية، وشعوبنا الشرقية بالتقهقر، والانحطاط قياسا علي أحوال العائلات عندنا، مصيبين في حكمهم تمام الإصابة. لأنك إذا نظرت إلى العائلة عندنا نظر

المتأمل البصير الذي لا يقف عند حد الظواهر، ولا يقنع بقولهم أن تكون "تجد أن العائلة الفلانية ليحكم بوجود العائلة في الشرق" كما ينبغي أن تكون" تجد أن العائلة عندنا إنما هي شبه العائلة الحقيقية لا هي بتمامها"

وبيان ذلك أن العائلة عندنا إنما هي عبارة عن رجل تزوج فأصبح ذا بيت يأوي إليه –وكان قبل ذلك يأوى إلى بيت أبيه– وامرأة تستقبله حين مجيئه إلى البيت –أو لا تستقبله علي حد سواء– علي شرط أن تدبر منزله، وتهيئ طعامه –وسواء كان ذلك بهمتها، أو بعناية الخدم– وذا بنين وبنات يحبهم ويحبونه – أولا يحبهم ولا يحبونه– فذلك ليس بالأمر المهم.

ذلك من جهة الرجل، أما من جهة المرأة فيكفي في نظرها أنها تزوجت. وأما الأولاد فمساكين لا يعرفون ما هي الدنيا، ولا يفهمون ما هي العائلة، وعلي ما يرون يشبون ويكبرون، فإذا جاء دورهم وتزوجوا ألفوا العائلة علي حسب النظام الذي عرفوه في صغرهم، والهيئة التي طبعت عليها طباعهم.

وليسوا لعمرك بملومين، ولا هم يؤاخذون، فإنما نعطي الذي أعطيناه، وما كلف الله نفسا غير ما وسعت.

ولرب قائل يقول أن أرباب الأسر ورؤساء العائلات الآن غير ملومين علي هذا القياس، ولا هم مؤخوذون بتقصيرهم؛ لأنهم هكذا كبروا، وكما رباهم آباؤهم هم يربون أولادهم، وكما كانت عائلات آبائهم هم يؤلفون عائلاتهم، ولسان حالهم ينشد إنما نعطي الذي أُعطينا.

نعم هكذا ربى أجدادنا رؤساء عائلاتنا، ولمعذورون هم لولا أنه لم يبق في عصر النور الذي نحن فيه، وعهد التربية الحقيقية والعلم الصحيح الذي وصلنا إليه عذر لمقصر، ولا حجة لجاهل مهمل. فالمثل أمامنا، والعبرة نصب أعيننا،

وقد اختلط بنا الأجانب حتى صار بعضهم كأنهم منا. فلماذا نتشبه بهم في كل ما يجلب الضرر علينا، وعلي هيئتنا الاجتماعية، وآدابنا الشرقية، ولا نأخذ عنهم الكمالات العائلية وطرق التربية الصحيحة النافعة التي تؤهل الأفراد لتأليف العائلة والعائلات لتأليف الأمة العظيمة القوية؟.

ونحن في وسعنا أن نجاريهم، ولكن استمساكنا بكل سيء من التقاليد القديمة، وتشبثنا بكل ضار من العادات السابقة يحولان بيننا وبين الإصلاح في أحوالنا كلها، حتى في شئوننا العائلية، ومعيشتنا البيتية نفسها. ورحم الله القائل:

ولم أر في عيـــوب النـــاس عيبـــا كـــنقص القـــادرين علـــي التمـــام

ولعمري أنك إذا شئت أن تعرف كيف لا ينبغي أن تكون العائلة، أو كيف لا يليق أن تكون المعيشة البيتية؟ فأدر عينيك في الشرق، ووجه نحو مصر نظرا خاصا يتمثل لك ما نسميه هنا بالخلل العيلي في أشنع هيئاته، ويبدو لك فساد التربية العائلية في أقبح صورة، فإنك لا تجد بين الخاصة والعامة معا إلا ما ندر من نموذج العائلة الحقيقية المتآلفة من أب وأم يدركان سمو مهمتهما إدراكا تاما، وأولاد يعرفون المبادئ العائلية.

ولا ينكر علينا أحد أن هذه العائلة الصغيرة المركبة من الأب والأم وبضعة بنين وبنات إنما هي مثال الهيئة الاجتماعية التي يتألف منها المجموع الوطني، وعلي هذا القياس كما تقدم لنا القول مرارا تكون العائلة الصغيرة مثال الأمة الكبيرة ومرآة الوطن بإجماله. فإذا لم يكن النظام، والترتيب، والسلطان، والخضوع، والحب، والألفة، والعفاف، والنزاهة من صفات العائلة الصغيرة، لم تكن هذه الفضائل والكمالات بحكم الطبع من صفات ذلك الشعب، أو تلك الأمة التي تمثلها هذه العائلة.

فانظر بعيشك إلى حقيقة الأحوال في بلادنا، واحكمِ إذا شئت أن تحكم بنزاهة نفس، وحرية ضمير، وخلو عن الغرض، والتشيع، والمحاباة. انظر تر الرجل يعيش وحده، والمرأة وحدها، والأولاد مع الخدم.

تر الرجل في مجلس، والمرأة في مجلس، والأولاد بين المجلسين. تر الرجل لا يعرف لامرأته مقاما، وهي لا تشعر من نحوه بعاطفة سوى الرهبة والخوف. فهو السيد الآمر لا الرفيق الصديق، وهي الأمة الخاضعة لا شريكة حياته، وعشيرة أيامه، وأم بنيه.

انظر تر الرجال والنساء من أجل هذا التفرق لا يعرفون عاطفة الحب والاحترام لأزواجهم ولأولادهم. وذلك أمر طبيعي، فإن الرجل الذي لا يحب امرأته ويحترمها لا يحب أولاده، وهكذا المرأة التي لا تحب رجلها وتحترمه فأنها لا تحب أولادها، وأول الروابط العائلية الحب والاحترام.

انظر إلى الأوروبيين حتى سوقة القوم والدرجة السفلى منهم؛ لتمثل لعينيك حالة العائلة الحقيقية؛ إذ أنك ترى هناك ما لا ترى له أثرا عندنا من الائتلاف بين أفراد العائلة من كبيرها إلى صغيرها، من الأب الرئيس، والأم المسنة إلى الابن الصغير الذي يدب علي يديه ورجليه، والفتاة الطفلة الرضيعة.

بل إنك ترى هناك المشاركة في الحياة علي أجمل صورها، وأبهى هيئاتها، وتري التضامن العائلي علي أبدع أشكاله، واسمي أنواعه. وإذا طرقت بابا لهم في ساعة العشاء مثلا وجدت حول المائدة العائلة التي تمثل الهيئة الاجتماعية. وقد قام في صدرها الأب الرئيس، وأحاط سائر أعضاء تلك الهيئة به، ودار الحديث بين الكبار الذين يعرفون، والصغار الذين يجهلون، فأولئك يفيدون وهؤلاء يستفيدون، والأب الرئيس يفتي، وينصح، ويشير، ويدير نظام ذلك الاجتماع. فما أبهى، وما أجمل مثل هذا الالتئام!.

بل ما أبهي وما أجمل– علي قول داود النبي والملك– أن ترى "أولادك حول مائدتك كأغراس الزيتون"!

وكيف تصلح حال أسرة لا يحب أفرادها بعضهم بعضا الحب العائلي الحقيقي؟ وكيف الوصول إلى مثل هذا الحب السامي المقدس دون أن يعرف أفراد الأسرة بعضهم بعضا معرفة تامة حقيقية؟ وأي سبيل إلى هذا التعارف إذا كان لا اجتماع ولا ائتلاف، وكان مجلس الرجل وحده، ومجلس المرأة وحدها، والأولاد بين المجلسين؟

لعمري أننا إذا نظرنا بعين الإمعان إلى انحطاط الشرق وتقهقره وجدنا بين أسباب الحالة التي صرنا إليها المعيشة العائلية التي نحن فيها، والتربية الفاسدة التي نتلقاها. ثم إذا نظرنا إلى تقدم الغرب ونجاحه حتى أصبح رجاله يأمرون وينهون لا في بلادهم فقط، بل في بلاد غيرهم أيضا، وصاروا يفكرون حتى في اقتسام الشرق فيما بينهم، وفي تجزئته والاقتراع عليه، وهو الذي عنه أخذوا تمدنهم، ومن بحار علومه ومعارفه اغترفوا علومهم ومعارفهم، وجدنا أن هذه القوة التي تعلي كلمتهم، وترفع رؤوسهم حتى تناطح السحاب إنما هي مستمدة من التربية الجيدة التي يمنحونها لأولادهم، والمعيشة العائلية الحقيقية التي يتمتعون بها.

ونحن ما لنا وللغرب نضربه مثلا ونذكر أهله عبرة، في حين أننا لفي غنى عن ذلك كله بما عندنا في الشرق نفسه من الشعوب والممالك التي كانت بالأمس خاضعة لنا، ففكت رباطها، وحلت قيدها، وخلعت عنها سلطتنا، وأصبحت ذات عروش، والوية ولغة رسمية، بل صارت تتطال بأعناقها إلينا، وتطلب أن تسير وإيانا علي قدم المساواة. فما الذي قواها وأضعفنا، وما الذي رفعها وحطنا سوي أن العائلة عندها هي كما ينبغي أن تكون العائلة.

بل مالنا ولتلك الشعوب الغربية عنا، وأن تكن في حكم الشرقية مثلنا، البعيدة منا، وأن تكن قريبة إلينا ونحن عندنا الآن في بلادنا نفسها ما يكفينا مؤونة التمثيل والتماس العبر. أولسنا نري في مصر وسوريا خاصة فرقا عظيما وبونا شاسعا في أحوال بعض العناصر والطوائف التي يتألف منها سكان هذه البلاد. فلماذا تختلف حالة طائفة من طوائف هذه البقعة عن الطائفة الأخرى كل ذلك الاختلاف العظيم؟ فتري ابن الطائفة الواحدة مثقف الخلق، نير البصيرة، جريئا، مقداما، راغبا في التقدم، محبا للعمل، ملتمسا للعلا. وتري الرجل منهم ينصر رفيقه، ويشد ازره، ويتهافت علي مساعدته كأنه شقيقه لأبيه وأمه. في حين أنك ترى العكس في أحوال بعض الطوائف الأخرى، فلا أدب في الخصال والعادات، ولا فكر نير، ولا جرأة، ولا إقدام، ولا اكباب علي العمل، ولا مطمع في مراتب العلا، ولا ولاء قومي، ولا ائتلاف شعبي، بل ولا حب أخوي، لا بل ولا عواطف والديه، ولا شعائر دينية والعياذ بالله.

فما سبب هذه الحالة السيئة التي تمزق قلوب الوطنيين الحقيقيين حزنا، وأسفا؟ لأنها في حقيقة الأمر ونفس الواقع تمزق قلب الوطن، وأحشاء الجامعة القومية، وتؤدي بالمجتمع الشعبي إلى التفرق، وبالتالي إلى الخمول، والتقهقر، والانحطاط، ثم إلى الدخول في ربكة الأجنبي.

أجل، ما هو السبب يا ترى في ما نحن فيه؟ سؤال لسنا نحوم كثيرا في مضمار البحث لنجد له جوابا، بل نحن نرد القارئ اللبيب إلى مفتتح هذا الفصل إلى الكلام علي "كيف ينبغي أن تكون العائلة". فيجد الجواب عليه نعم، إن علة العلل التي تنحر عظم هذا الشرق، وتقتل في نفوس أبنائه عواطف الائتلاف، والمحبة، والأقدام، والشجاعة، والعفة، والنزاهة، وما سوي ذلك من العواطف الشريفة، والشعائر السامية التي تمثل التربية الحقيقية، والعلم

الصحيح، وترفع الأمة إلى أعلى قمم النجاح والفخر إنما هي كون العائلة عندنا علي غير ما ينبغي أن تكون، بل هي كون العائلة عندنا اسما لغير مسمى.

ونحن لا نستطيع الدخول هنا إلى مضمار البيان والإفصاح بأكثر مما فعلنا؛ مخافة أن يعد دخولنا في هذا الباب بمثابة الدخول إلى ما لا يجوز لنا الاشتغال به، ولا الالتفات إليه. بل قد يحسب البعض كلامنا في هذا المعني من قبيل التطفل والتطاول، ولاسيما إذا عمدنا إلى الكلام علي هذه العلة بالتفصيل، وبينا الأسباب المؤدية، وأوغلنا في البحث عن نتائج تعدد الزوجات والتشديد في الحجاب.

ومع ذلك فلسنا نرى بدا من الإلماع إلى بعض نتائج هذا الأمر الخطير، ولاسيما وقد بدأ بعض مواطنينا من أدباء المسلمين وأكابر كتبتهم بالتنبيه إلى هذا الأمر الجلل، والخوض في عباب موضوعه. فقد قرأنا في الجرائد والمجلات العربية علي أثر ما كنا ننشره من المقالات الانتقادية علي هيئة الاجتماع في الشرق مقالات عديدة لكثيرين من أخواننا أدباء المسلمين في القطرين المصري والشامي، ضمنها أصحابها ملاحظات جمة مفيدة في ذلك الموضوع الخطير، وفي التربية العائلية بنوع خاص. وقد سمعنا أن عالما من جلة العلماء المسلمين –وهو أحد رجال القضاء في مصر– قد شرع في وضع كتاب خاص في الزواج، والحجاب. فنحن نمسك القلم عن الجري في مضمار هذا الموضوع المهم؛ لأن أصحابه أخلق منا وأجدر بالكلام عليه بما يقتضيه من التطويل والتفصيل. وانه ليسرنا أن يبدأ كتاب المسلمين بالتنبيه إلى التربية العائلية؛ لأن البدء في ذلك فأل حسن، وتبشير بقرب الوصول إلى الغاية.

وإذا رأيت من الهلال نموه أيقنت أن سيصير بدرا كاملا

ومما يحسن أن تختتم به هذا الفصل قول الفيلسوف مونتسكيو الفرنسي

"أن العائلة العفيفة الفاضلة هي بمثابة سفينة تشد طرفيها في خلال الزوبعة بمرسيين: هما الدين، والتربية الجيدة". ولعمري أنه قول يجدر أن يكتب بأحرف من ذهب علي باب كل منزل من منازل العائلات، فليتدبره أولو الحجى، وليتبعه ذوو الذكاء.